الفصل السادس
حياة اليهود في الجيتو

يمكن تقسيم تاريخ الجماعات اليهودية إلى عدة حقب تميزت كل جماعة بسمات عامة مشتركة بتأثر هذه الحقبة أو تلك وهذه السمات ليست قانونا علميا إنما هي أداة تحليلية تهدف لإبراز السمات المميزة لهذه الجماعة أو تلك مع الأخذ في الاعتبار أن هناك من أفراد الجماعة من لا تنطبق عليه هذه السمات ، وحتى الغالبية التي تتسم بهذه السمات تختلف من حيث درجاتها تبعا لظروف وخصائص كل شخصية فردية .

والقرآن الكريم يعلمنا الموضوعية في الحكم على الجماعات فلا نعمم الأحكام على كل الأشخاص فليس كل يهودي مثلا عدواني أو بخيل أو استغلالي إنما هذه الصفات قد تغلب على جماعة معينة في زمان ومكان معينين .

السمات العامة ليهود الشتات " دياسبورا " :

تعَرَّض اليهود – كما سبقت الإشارة – إلى النفي القهري على يد البابليين والآشوريين والرومان ويمكن رصد ثلاث سمات عامة ليهود الشتات هي :

أولا : العزلة :

عاش اليهود تاريخهم كله في عزلة وترجع التوراة وهي السجل السياسي لتاريخ اليهود تاريخ هذه العزلة الاختيارية إلى فترة إقامة بني إسرائيل في مصر حيث رسم لهم يوسف خطة الهجرة من أرض كنعان ، كما دبر لهم الإقامة في أرض مستقلة بهم مستغلا تقدير فرعون له ، وما إن ذهب يوسف وذهب النفوذ العبراني في الحكم اللذان ضمنا لهم استمرار هذه الميزة بما ترتب عليها من ثراء وجاه حتى كلفهم فرعون مصر في مهنة الزراعة وصناعة البناء اللتين كانتا الصناعتين الرئيستين في مصر ، وقد

اعتبروا هذا التكليف تعذيبا وعبودية وفكروا في الخروج من مصر ، وأضفوا على أمانيهم ورغباتهم قدسية إلهية تستر ما يخفونه من تآمر على أبناء الشعب المصري .

وقد أخذ الوجود اليهودي داخل المجتمعات القديمة وفي العصور الوسطى أشكالا متعددة مثل : حارة اليهود في مصر ، وقاعة اليهود أو المسبتة في اليمن والمِلاح في المغرب ، ويعتبر الجيتو أشهر الأشكال الانعزالية اليهودية في العالم بحيث أصبح يطلق على سبيل التعميم على كل شكل من أشكال الحياة اليهودية الانعزالية وسط الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيهم . والجيتو عبارة عن حي أو عدد من الشوارع المخصصة لإقامة اليهود .

الجيتو إذن يشكل مسألة حيوية بالنسبة لليهودي لا يضمن بقاءه وحسب وإنما مكانته وهويته أيضاً. ومما دعم الحاجة إلى الجيتو مجموعة الشعائر اليهودية الخاصة، مثل: قوانين الطعام، وتحريم الزواج المختلط ، وعدم شرب خمر صنعها واحد من الأغيار، والختان، والنصاب اللازم لصلاة الجماعة، وعادات الدفن والمدافن ، وشعائر السبت " (١)

نتائج العزلة على يهود الجيتو :

كان لعزلة يهود الشتات في الجيتو نتائج مهمة أثرت تأثيرا كبيرا في شخصية يهود الشتات من هذه النتائج :

١- قللت العزلة من اختلاط اليهود بغيرهم من الجماعات مما ولد الشبهات تجاه اليهودي .

٢- نظرا لضيق المساحات المخصصة لسكن يهود الجيتو فإن الكثافة السكانية في أحياء اليهود كانت عالية مما أدى إلى انحطاط وتدهور المستوى الاجتماعي لحياة اليهود ، وتفشي الأمراض فيهم ، وتراكم القاذورات مما أثر تأثيرا عميقا على وجدان يهود الجيتو وعمَّق من انفصالهم عن العالم الخارجي انحصارهم داخل عالم يتصورون أن كل ما فيه يهودي خالص .

---

(١) لمزيد من التفصيل الرجوع لكتاب " الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية " د.رشاد الشامي دار الهلال .و " موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية " د . عبد الوهاب المسيري م ٤ / ج ٣ / الباب الثاني " : الجيتو : التاريخ " .مرجع سابق .

٣- انعدام الإحساس بالأمن لدى اليهودي خارج أسوار الجيتو ، أما داخل الأسوار فكان يجد الأمن والطمأنينة .

٤- تعمق الإحساس لدى يهود الشتات بأن الجيتو هو درع الأمان للحفاظ على الجماعة اليهودية وشريعتها ، وأن هذه العزلة هي الشرنقة التي تحافظ على حياتهم الروحية إلى أن يأذن الرب بالعودة إلى أرض الميعاد ويتم الخلاص على يد الماشيح .

٥- حدّت العزلة داخل الجيتو من أوجه النشاط التي كان يقوم بها اليهود في مجال التجارة الدولية مما جعل الفقر يعم الحياة اليهودية .

ثانيا : الدين اليهودي :

السمة الثانية من السمات العامة ليهود الشتات هي الدين اليهودي ، لقد ظل الدين اليهودي لفترة طويلة منذ القرن الثاني ق. م وحتى القرن الثاني عشر الميلادي هو العامل الرئيسي في توجيه الحياة اليهودية ، وبالرغم من أن الدين اليهودي كدين سماوي يحتوي على الكثير من التعاليم السماوية التي تحض على الخير وتنبذ الشر إلا أن المحاولات التي تمت على يد حاخامات اليهود بعد أن تم تدوين التراث الشفهي اليهودي (التلمود) الذي يضم بين دفتيه اجتهادات هؤلاء الحاخامات في تفسير الدين اليهودي أدخلت إلى الدين اليهودي مجموعة من الأفكار المحورية خلقت من اليهود استعدادا للانعزال عن الأغيار وعمقت بعض العقائد لدى اليهودي مثل عقيدة " شعب الله المختار " و " العودة إلى أرض الميعاد " و " انتظار الماشيح المخلص " وغيرها من العقائد التي أكدت مع مرور الأجيال انفصالية اليهود وإحساسهم بالتميز والتفرد .

وكان اليهود يحرصون على إقامة معابدهم حيثما حلُّوا ولم يكن المعبد قاصرا على أداء الصلاة فقط بل كان يمثل المركز الديني والثقافي والتعليمي والاجتماعي ، وكان نظام التعليم اليهودي قائما على افتراض أن شريعة إسرائيل هي ذروة أعمال الرجل اليهودي في حياته ومعيارا لمركزه الاجتماعي .

في ظل هذا المناخ الانعزالي التمحور حول الدين وسلطة الحاخام وهامشية الاقتصاد المنحصر في التجارة المتجولة ، وبيع الملابس المستعملة ، وفتح الحانات ، وعملية الحياكة والصباغة والإقراض بالربا والصيرفة تبلورت السيكولوجية الأساسية لشخصية يهود الجيتو التي عانت نوعا من الانفصام في الرؤية جعل الصراع في

المشاعر والتناقض الحاد في السلوك محورا رئيسيا تحددت من خلاله السمة الرئيسية لتلك الشخصية وهي : عقدة التناقض بين الشعور بالاستعلاء والشعور بالدونية والاضطهاد .

ثالثا : عقدة التناقض بين الشعور بالاستعلاء والشعور بالدونية والاضطهاد :

السمة الثالثة من السمات العامة ليهود الشتات هي عقدة التناقض بين الشعور بالاستعلاء والشعور بالدونية والاضطهاد ، فيتنازع شخصية يهود الجيتو شعوران متناقضان : شعور بالذلة والمسكنة والتشريد نتيجة الاضطهاد الذي تعرضوا له منذ السبي البابلي إلى محرقة النازي ، وشعور بالزهو والفخر ببقائهم رغم كل مشاريع الإبادة التي خططت من أجلهم فظهرت في تعبيراتهم اللغوية ألفاظا يطلقونها على أنفسهم لتؤكد هذا الغرور وتزيد من الالتحام والتضامن اللذين يربطان بعضهم ببعض وجعلوا هذه الظاهرة مرتبطة باختيار إلهي دون سائر البشر ومن هنا لا يتردد اليهود في تسمية أنفسهم " شعب الله المختار " فبهم يعاقب الله الأمم الأخرى وهم الذين يبقون وحدهم في آخر الزمان متسلطين على رقاب العالم ، وهذا الشعور يولد لديهم الإحساس بالاستعلاء العنصري على أمم العالم التي تعني – عندهم – القذارة المادية والروحية والكفر . ([1])

والشعور بالاستعلاء العنصري ليهود الجيتو جاء كرد فعل لشعورهم بالذل والهوان والاضطهاد لإحداث توازن نفسي لدي شخصية يهود الجيتو فهي تمثل أحلام اليقظة التي تخفف من ضغوط الواقع المؤلم الذي كانوا يعيشونه .

ولكن هذا الاستعلاء العنصري وإن كان قد خفف من وطأة شعورهم بالذل والهوان إلا أنه كان سببا في مزيد من اضطهاد الأمم لهم لأن الاستعلاء العنصري اليهودي ولَّد الكراهية والكراهية تغري بالاضطهاد ، وإذا باليهود يدورون والعالم على أثرهم في حلقة مفرغة من الاستعلاء والكراهية والاضطهاد مما رسخ في عقيدتهم أنهم الضحية الوحيدة لشعوب العالم على مدى التاريخ أو ما عبروا عنه حديثا بمعاداة السامية . مع

([1]) لمزيد من التفصيل حول شخصية يهود الجيتو انظر كتاب " الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية " د.رشاد الشامي الفصل الأول .

أن العداء للسامية هو رد فعل لعداء اليهود لغير اليهود أو عداء السامية لغير الساميين .

ويتساءل الأديب الصهيوني " حييم برينر " عن هذه المشاعر المتناقضة داخل شخصية اليهودي في الجيتو بقوله : " من أين أتى هذا الاحتقار من جانب اليهود للأغيار والشعور بالسمو عليهم ؟ هل كان اليهودي عديم الشعور حقا وميتا إلى درجة لم يشعر معها أن حياة الأغيار أكثر غنى وأكثر جمالا من حياته ؟ كلا إن هذا مستحيل ونحن لا نستطيع أن نصدق هذا .

فإذا كان هناك احتقار للأغيار فلم يكن ذلك سوى حسد طبيعي يشعر به الفقراء تجاه الأغنياء والرهبان تجاه الفرسان والعاجز تجاه القادر .

إن هذا الاحتقار لم يكن سوى استسلام لنصيبنا في الدنيا ، وأحيانا نوع من العزاء لآمالنا في العالم الآخر يتلوه صرير أسنان وغضب داخلي عن وعي أو غير وعي " (١)

وبسبب كتب اليهود المقدسة ، وتفسيرات الحاخامات الاستعلائية العنصرية ، والانعزالية – الاختيارية أو القهرية – اتسم يهود الجيتو بسمات اجتماعية خاصة ميزتهم عن سائر المجتمعات مما جعل لهم طابعا قوميا أهم سماته الازدواجية فهو :

١– مخيف باطش بالضعفاء ذليل جبان أمام الأقوياء .

٢– يشعر بالذل والمسكنة في أعماق نفسه ومع ذلك يتظاهر بالاستعلاء العنصري أمام الأغيار .

٣– راض بما نزل به من اضطهاد ، لكنه متذمر متربص لتحقيق تمرده وثورته

٤– محب للمال حريص على جمعه من أي سبيل ، ومع ذلك يتظاهر بالقناعة والرضا بالقليل .

وكل من ينشأ في المجتمع اليهودي مهما كان أصله فإنه يحافظ على سماته الخاصة حتى يحوز القبول من المجتمع اليهودي .

---

(١) هرتزرج . أفراهام " الفكرة الصهيونية " ص ٢١٣ نقلا عن " الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية " مرجع سابق ص ٤٩

ويؤكد ذلك علماء النفس حيث يقولون إن " الفرد يتعلم خلال عملية النمو أن يسلك ويتصرف وفقا لما يتوقعه منه المجتمع ويقبل الفرد قيم المجتمع و معاييره دون تفكير كثير ودون وعي بأن هذه المعايير تختلف عن مجتمع آخر فإذا كان المجتمع الذي نعيش فيه يقيم النظافة والسرعة والعمل الجاد فإننا نحاول أيضا أن نتحلى بهذه الخصال ويصبح الأفراد الذين يتحلون بها موضع تقديرنا وإعجابنا ... ولعل هذا يوحي بوجود طابع مميز للشخصية يميز شخصيات الأفراد في كل مجتمع من المجتمعات فنجد أن الطابع الغالب للشخصية في أحد المجتمعات هو العدوانية بينما نجد أن الطابع الغالب في مجتمع آخر برود الأعصاب وفي مجتمع ثالث السلبية ، ويتمشى ذلك مع الأفكار الشائعة عن الطابع القومي فيقال فمثلا أن الفرنسيين يختلفون عن الإنجليز وهؤلاء يختلفون عن الصينيين" (١)

يهود الجيتو والنهضة الأوربية :

بدأ عصر النهضة بسقوط الحكم الثيوقراطي في أوربا وبداية عصر العلمانية الجزئية التي تدعو إلى فصل الدين عن الدولة وتحولت الكنيسة وما يماثلها عند اليهود " وهو المعبد " إلى جمعيات حرة ووظيفية تؤدي وظيفة محددة .

وكان هناك متحمسون لهذه الديانة الجديدة العصرية ، ديانة المنطق ، وكانوا يدهشون مما يجنى من جراء التمسك بالاضطهادات القديمة ، وحارات اليهود التي هي أمور بعيدة عن التبصر .

وبالنسبة للاضطهادات الدينية سارع العقلانيون المتحررون من نير الكنيسة وتعاليمها إلى تطبيق المبدأ المذكور في موضوع الدين .

لقد اعتبروا الفرق بين الدينين : المسيحي ، واليهودي غير ذي بال في الحياة المدنية وقالوا : إذا كانت القرارات السياسية يجب أن يتخذها المواطنون باستخدام عقولهم وبتعقلهم للأمور فما يهم أن يدين المواطنون بأديان مختلفة (٢)

إن الدولة الوطنية العلمانية الحديثة التي ظهرت مع نهاية القرن الثامن عشر لم تكن تهتم بالمعتقدات والممارسات الدينية لمواطنيها. فإن اهتمامها بالعكس كان مرتكزا على

---

(١) د. محمد فرغلي فراج " مدخل إلى علم النفس " ص ٨٤ دار الثقافة للنشر و التوزيع .
(٢) إسماعيل راجي الفاروق " الملل المعاصرة في الدين اليهودي " ص ٣٥ نقلا عن " الشخصية اليهودية الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٦١ .

استعدادهم للمساهمة في القضية الوطنية من خلال الخدمة العسكرية والمدنية، ودفع الضرائب، وعلى العموم، في العمل لصالح الوطن .

وكانت للدولة الوطنية العلمانية الحديثة أثر بالغ على تطور الديانة اليهودية لأن اليهود حتما طبقوا أفكار أوروبا الحديثة على القانون، والطقوس والفلسفة والأخلاق والممارسة اليومية لدينهم. وكانت النتيجة انخفاض درجة التأثير الديني على سلوكهم وازدياد الحزبية والانقسامات معا في مواجهتهم لتحديات الحداثة (١)

كانت دعوة سبينوزا إلى العالمية وإلى التسامح، تدوي فِي جمِيع أنحاء أوربا، ولاسيما اِبتِداء مِن القرن الثامِن عشر، الذِي كان يعتبر "قرن النور"، فِي مقابِل الظلمانية الدينية، فالعقلانية تفترس التقليد .

هذا الانفِتاح على العالِم الخارِجِي، بعد قرون من "الجيتو" جعل اليهودية قادِرة على أن تُصلح نفسها بِنفسها، وأن تتجرَّد مِن الطقوسية البالية، ومِن الجمود الذِي أَبَدَ نِظام التمييز، كما هِي الحال فِي كل مجتمع مضطهد يعِيش فِي وضع حصارٍ. (٢)

وعندما قامت الثورة الفرنسية، أَلْغَت كل تَفْرِقَةٍ عنصرية تجاه اليهود وعُمم هذا الإجراء فِي فرنسا وفِي أوربا الغربية بأجمعها . (٣)

وجد اليهود أنفسهم متحررين من القوانين المقيدة لأول مرة منذ آلاف السنين. وأنهم يستطيعون أن يعيشوا خارج الجيتو وأن يبعثوا أولادهم إلى المدارس العمومية، وأن يتعلموا أي حرفة أو مهنة، وأن يستخدموا المسيحيين، وأن يرتدوا اللباس نفسه الذي يرتديه الأوروبيون. ولم يحصروا في بيوتهم صبيحة أيام الأحد والأعياد المسيحية؛ وتم السماح لهم بالذهاب إلى الحدائق العمومية وإلى أماكن الترفيه. (٤)

ولم يكن من الممكن أن يدخل المجتمع اليهودي في أوربا الغربية في نطاق حركة التنوير أو النهضة لأنه لم يكن مهيأ لذلك ثقافيا وعاطفيا وكانت الغالبية العظمى من اليهود التي فرت إلى أوربا لازالت تعيش في عالم تظلله المعابد وروح التلمود ، ولم

---

(١)الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق . –٥٨–٦٣

(٢) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني، الفصل الثاني " من القومية إلى اليهودية الصهيونية " مرجع سابق .

(٣) أبقت أوربا الشرقية على "الجيتو" أي: مجتمعات المنبوذين، واستمر فِيها إرهاق الجماعات اليهودية ..

(٤)الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص –٥٨–٦٣

يكن لديهم أي علم تقريبا بالتيارات الإنسانية التي تجري في الحياة خارج أسوار الجيتو .

لكن رويدا رويدا بدأت الآراء الجديدة عن حرية الإنسان تأثر في يهود الجيتو ، ولم يَعُد كثير من اليهود أي معنى لبعدهم الزائد عن الشعوب التي بشرت بحب الإنسان وبالحرية ، وتفجرت في كل ناحية هتافات " لنخرج من الجيتو " و " لنقترب من الشعوب " و " لنتعلم لغاتهم " و " لنتثقف ونتعلم الحكمة والمعرفة " [1]

وهكذا بدأت حركة تثقيف عصرية بين يهود الجيتو كانت بدايتها في ألمانيا عبر عنها بما يسمى " حركة التنوير اليهودية " انطلق فيها دعاة حركة التنوير اليهودية من المنطلقات نفسها التي انطلقت منها حركة الاستنارة الغربية بكل محاسنها ومساوئها ولكن حركة التنوير اليهودية كان لها طابعها الخاص و موضوعاتها المتميِّزة، نظراً للخصوصية النسبية للجماعات اليهودية في المجتمع الغربي . ومن أهم الموضوعات التي نادت بها :

١- رفض الشخصية اليهودية الجيتوية المتمسكة بتراثها وهويتها بشكل يفرض عليها العزلة .

٢- المطالبة بتحويل اليهود من عناصر هامشية منعزلة إلى عناصر منتجة مندمجة ، أي تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج بحيث يمكنهم التكيف مع الوضع الاقتصادي الجديد.

٣- المطالبة بضرورة تشجيع اليهود على الاشتغال بالزراعة والحرف اليدوية . ولم يكن للدعوة إلى تحديث وظائف اليهود وحرفهم ومهنهم مضمون اقتصادي وحسب وإنما كان لها مضمون ثقافي ونفسي عميق .

٤- تشجيع الاندماج اللغوي فطالبوا بألا يستعمل اليهود اللغة " اليديشية " وأن يتعلموا بدلاً من ذلك اللغة الأم سواء كانت الروسية أو الألمانية أو البولندية. ذلك أن تنقية اللغة التي كان يتحدث بها اليهود كفيلة برفع مستواهم الحضاري .

([1]) باروخ يهودا " تاريخ الصهيونية " ص ٤١ نقلا عن نقلا عن " الشخصية اليهودية الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٦٣ .

٥- الدعوة إلى إحياء اللغة العبرية باعتبارها لغة التراث اليهودي الأصلي .

٦- الدعوة إلى إصلاح التربية التعليم لدى اليهود ، واعتبروا قضية التربية القضية الأساسية بسبب ما تصوروه من استغراق الجماعات اليهودية في التخلف والخصوصية. فقد كان الاعتقاد السائد بين أعضاء الجماعات اليهودية أن التلمود هو الكتاب الوحيد الجدير بالدراسة، وأن الدراسة العلمية غير الدينية لابد أن تبقى ثانوية وتوظَّف في خدمة الدراسة الدينية. ونادى دعاة التنوير اليهودي بأن :-

أ- تكون المدارس التلمودية العليا (يشيفا) مدارس لإعداد الحاخامات وحدهم .

ب- تتم العملية التعليمية خارج الإطار الديني .

ج- تشمل الجماهير كلها وليس الأرستقراطية الفكرية وحدها من الحاخامات وغيرهم.

هـ- يرسل اليهود أولادهم إلى المدارس غير اليهودية حتى يتقنوا كل الفنون العلمانية، مثل الهندسة والزراعة .

و- تتاح الفرصة كاملة أمام المرأة للتعليم .

وبالفعل ، بدأت المدارس اليهودية العلمانية تظهر، لأول مرة في تاريخ الجماعات اليهودية الأوربية ، مع منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، وافتُتحت أول مدرسة يهودية لتعليم المرأة في روسيا عام ١٨٣٦. وكان دعاة التنوير يرون أن التعليم العلماني هو السبيل إلى تحديث اليهود ودمجهم وعلمنتهم.

٧- إعادة كتابة التاريخ اليهودي كتابة عقلية لا دينية ، لذا انتقدوا التراث الديني اليهودي المغرق في الغيبية واللا تاريخية .

٨- إعادة تنظيم الجماعة اليهودية من الداخل، وإلغاء أشكال الإدارة الذاتية التقليدية ، والاستجابة لدعوة الدولة المركزية إلى أن يدين المواطنون لها وحدها بالولاء .

٩- الدعوة إلى الإصلاح الديني . فمع تغيير حياة اليهود الاجتماعية والاقتصادية ، أي بعد تحديثهم ، كان ضرورياً أن يتم تحديث الديانة نفسها حتى لا ينصرف عنها الشباب اليهودي الذي كان قد بدأ يتساءل عن مدى جدوى وجدية مصطلحات مثل

«المنفى» أو «صهيون» أو «العودة». وقد وجه دعاة التنوير سهام نقدهم إلى التراث القومي الديني اليهودي فاهجموا بعضه وأعادوا فهم بعضه الآخر :-

أ- هاجموا فكرة الماشيَّح وأسطورة العودة .

ب- حولوا فكرة جبل صهيون إلى مفهوم روحي أو إلى اسم المدينة الفاضلة التي لا وجود لها إلا بوصفها فكرة مثالية في قلب الإنسان .

ج- أصبح الخلاص هو انتشار العقل والعدالة بين الشعوب غير اليهودية ، ولم يَعُد مرهوناً بالعودة إلى أرض الميعاد .

د- هاجموا التراث اليهودي الشفوي أو الشريعة الشفوية وكُتبها الدينية مثل التلمود والشولحان عاروخ ، وأبقوا على التراث اليهودي المكتوب وحده .

هـ- ذهبوا إلى أن من حقهم العودة إلى التراث الأصلي نفسه بدون التقيد باليهودية الحاخامية، كما هاجموا الحركات والكتب الصوفية العديدة التي أفرزها التراث اليهودي، مثل الحسيدية وكتب القبَّالاه .

و- حاولوا أن يُدخلوا نزعة عقلانية على اليهودية . (١)

وحِين أصبح اليهود مُنذئذٍ مواطنين كامِلِيّ المواطنة فِي أممهم، سواء فِي أوربا الغربية أَو الوسطى، اندمجوا على اِختِلاف أصولهم فِي الحياة الاجتِماعِية، والاقتصادية، والسياسِية لبلادهم، وأسهموا فِي تطوِير الثقافة الغربية فِي سائر المجالات، ففِي الفلسفة ـ مثلاً ـ قَدَّمَ سبينوزا إسهامًا عظِيمًا وأَصِيلا فِي التيار الدِّيكارْتِي، كما فسَّر المفكرون اليهود الألمان التقاليد السابِقة على "كَانَتْ"، والأمر لا يختلف عن ذلِك فِي المجالات الأخرى، من شِعر هين إلى موسيقى مندلسون، أو فيزياء آنشتين.

كل هذِهِ الأعمال العظيمة جزء من المجال الثقافي للغرب فِي مجموعه، دون أن يحمِل شيء مِنها طابعا يهوديا، كما أنهُ لا يوجد ما يُسَمَّى بالبيولوجيا الكاثوليكية، مع وجود باستور، ولا فيزياء بروتستانتية معَ نيوتن. (١)

---

(١) انظر موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٣ / ج١ الفصل الخامس الاستنارة اليهودية مرجع سابق .

أثر حركة التنوير اليهودية على الفكر اليهودي

أ- حققت حركة الإصلاح الديني نجاحاً فائقاً في ألمانيا وانتقلت منها إلى الولايات المتحدة، حيث يشكل اليهود الإصلاحيون والمحافظون الأغلبية الساحقة .

ب- فشلت حركة الإصلاح الديني تماماً في شرق أوربا. وانتشرت بدلا منها – خصوصا بين شباب اليهود – النزعتان الإلحادية والثورية.

ج- زعزعت الحركة كيان السلطة الدينية التي كانت تتحكم في اليهود ، الأمر الذي جعل هذه السلطة تقاوم التيارات التنويرية وتحاول إفشالها. وهو ما كان يضطر دعاة التنوير إلى اللجوء أحياناً إلى السلطات الحكومية لتساعدهم في فرض القيم العصرية على اليهود.

اليهودية الإصلاحية

كان لليهودية الإصلاحية في أوروبا قوة لها بعض الأهمية، لكن لم يتبنّها أبدا معظم يهود القارة. ولكنها نمت بسرعة في الولايات المتحدة حتى أصبحت حركة دينية قوية. ومن سماتها الأمريكية المميزة التركيز على حق كل يهودي، ومن واجبه دراسة التناخ (العهد القديم) والتقليد ثم يتخذ قراراته حول الممارسة والطاعة الدينية المبنية على علمه الشخصي بدلا من أن يطيع فقط أوامر حاخامه.

وكانت نتيجة هذه الديمقراطية للديانة اليهودية هي تشجيع ممارسات دينية كبيرة ومختلفة. ولقد اختار كثير من اليهود الإصلاحيين إقامة الصلوات بالإنجليزية بدلا من العبرية والالتزام فقط بالنزر القليل من الأوامر . (٢)

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني، الفصل الثاني " من القومية إلى اليهودية الصهيونية " .مرجع سابق .

(٢) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص –٥٨-٦٣

اليهودية الأرثوذكسية

كان إصلاحيو أوائل القرن التاسع عشر أقلية صغيرة من يهود أوروبا . وتخلى عدد آخر منهم عن تراثهم بالكامل، وبحثوا عن الانصهار في الدولة الوطنية الأوروبية الحديثة متخذين هوية وطنية مكان هويتهم اليهودية. نظر الذين يعتقدون أن الحداثيين قد عصوا الله في رفضهم اتباع أوامر التناخ (العهد القديم) بدقة إلى كل من الإصلاحيين والانصهاريين، أو العلمانيين، بانزعاج كبير. لقد أرادوا في أول الأمر تحدي ما رأوه استخفافاً بالأوامر، وذلك بتركيزهم على أهمية الالتزام الصارم بالشريعة والطقوس اليهودية.

وبدأت بعض الجماعات اليهودية تنغلق على نفسها خوفا من خطر الحداثة الذي يهدد تلاحم الجماعة واستمرارها، وذلك من خلال تشكيل جماعات متراصة ترفض الحداثة. وقد احتج بعضهم بضرورة رفض الامتيازات التي وفرها التحرر. وأصر آخرون على الانفصال الاجتماعي والثقافي الكامل لليهود من المجتمع الحديث. كل هذه الجماعات، مجتمعة تشكل ما يسمى اليوم باليهودية الأرثوذكسية. وفرض الأرثوذكس قيودا شديدة على التفاعل الاجتماعي والثقافي مع غير اليهود ولم تكن هذه القيود معروفة لا في اليهودية القديمة ولا في يهودية القرون الوسطى. فكان إزاء أي عبث طفيف بالتقليد تتخذ قيود جديدة من أجل حماية اليهود من إغراءات الحداثة؛ وهذا وضع اليهودية الأرثوذكسية في الاتجاه المعاكس للعلمانية أو اليهودية الإصلاحية . (١)

القومية الأوربية والقومِية الصهيونية

لقد كانت القومية اليهودية عِندما فتح سبينوزا اليهودية على العالِم ـ قد برزت على السطح مع "مسِيح" كاذِب هو سبتاي زفي ١٦٧٦م"، وكان الحماس لظهوره عامًّا، من مراكش إلى الدانيمارك، ومِن تركيا إلى فرنسا، وتهيأ المجتمع اليهودي الصغِير فِي مقاطعة فنسان ليُنشئ مملكة يهوذا، فِي رِبيع عام: ١٦٦٦م.

وقد اِعتقِل سبتاي زفي أولاً لدى وصوله إلى الدردنيل، ثم تحوَّل إلى الإسلام لقاء معونة مِن السلطان التركي ، بيد أن الحركة المسِيحِية والقومِية التِي كان قد أعلنها لم

---

(١) نفسه .ص ٥٨-٦٣

تتوقف مع رِدَّتِهِ، فبعد موته بِأكثر مِن قرن قام يهودي اسمه: يعقوب فرانك "مات عام ١٧٩١" بتقمُّص شخصِية سبتاي زفي، واتبعه تلامِيذ وأتباع فِي كل أنحاء أوربا، وحِين فصله أحد المؤتمرات الربانِية أعلن تحوله إلى المسِيحِية .

وفِيما عدا هؤلاءِ الدجاجلة الذِين ظهروا بِصورة دَوْرِيَّة، وعبَّأوا جموعا غفِيرة، وكل منهم يقدم نفسه على أنهُ "مسِيح" لِلإِصلاحِ "القومي" ـ نجد فِيما عدا ذلِك أن التقليد السائِد لليهودية قد اِحتفظ بالمغزى الروحي لِلإِيمانِ اليهودي، باعتباره شاهِدًا فِي جمِيع الأمم على التبشِير بملكوت الرب .

ولكن، منذ مطلع القرن التاسِع عشر، كانت جمِيع تيارات الفِكر فِي أوربا– بل وتيارات الروحِية اليهودية فِي أعلى مستوِياتها ـ كانت قد انحرفت عنِ طرِيق اليهودية الروحانية بِتأثِير هذِهِ النزعة القومية .

لقد اتجِهت الصهيونية السياسِية إلى أن تخلق نموذج مجتمع، يختلف اِختِلافًا ثابِتًا عن المجتمع الديني اليهودي، كيما تقلِّد المفهوم الغربي لِلقومِيةِ وللدولة، فالدولة اليهودية فِي الواقِع مشتقة من نموذج الدول الغربية الَّتِي يعِيش فِيها غوييم "غير يهود" .

ولقد فعل اليهود ما فعله الأوربيون، فكما اِستورد جمِيع القوميين الأوربيين، الإيديولوجية الرومانسية، لِلأمةِ القومية، حاول القوميون اليهود، رواد الصهيونية السياسِية، أن يؤسسوا قوميتهم على تصوُّف يُؤْمِن بالعرق وبِالأرضِ.

إن هذِا التحول الذي أصاب اليهودية، مِن دين إلى قومِية، كان مصحوبًا بنغمة تمجد العسكرِية والعنف، شبيهة بِما حدث فِي "القومية الجِرْمانيَّة":

إن القومية الصهيونية، ككل القوميات، تقوم على مجموعة مِن الأساطير، سواء فِي ذلِك القومية السلافية، والألمانية، والفرنسية، والإيطالية، وسائر القوميات الأخرى، فكل همها هو أن تجد "منابع" لِلأصلِ المشترك، مِن أجل تبرِير "سِياسة" تنتهجها، وهي منابع: الاشتِراك فِي الدم، والملحمة التاريخية، والرباط الجسدِي بالأرض. ولقد لجأت القومية الصهيونية، كغيرِها، إلى هذِهِ الأساطير . (١)

ولقد أثبتت كشوف الأنتروبولوجيا الفيزيقية كذب ادعاء اليهود بأنهم ينحدرون جميعا من أصل واحد ، يميزهم عن سائر الأجناس الأخرى .

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الثاني الفصل الثاني " القومية الأوربية وَالْقَوْمِيَّة الصهيونية " . مرجع سابق .

ويقول المؤرخون الأكاديميون اليهود " ، لقد استهل روفائيل بتاي مقاله عن "اليهود " في دائرة المعارف البريطانية بهذه العبارة الثمينة: " لقد ثبت مِن كشوف الأنتروبولوجيا الفيزيقية أنه لا يُوجَد جنس يَهوديٌّ، خلافًا للفكرة الشائعة . (١)

ورغم فشل حركة التنوير اليهودي في إنجاز كل أهدافها، فإنها تركت أثاراً عميقة في اليهودية. ولعل أهم هذه الآثار هو ظهور اليهودية الإصلاحية ودعاة الاندماج من الليبراليين والثوريين اليهود الذين طالبوا بحل مشاكل اليهود، أي المسألة اليهودية ، عن طريق الثورة الديموقراطية البرجوازية أو الثورة الاجتماعية الاشتراكية .

غير أن حركة التنوير مسئولة أيضاً بشكل ما عن ظهور الصهيونية فقد نادت بـ :

١- مهاجمة فكرة انتظار الماشيَّح الذي سيأتي بالخلاص، ونادوا بأن على اليهود الحصول على الخلاص بأنفسهم. وقد أزالت هذه الدعوة الحاجز الوجداني الذي كان يقف بين اليهود (المتدينين وغير المتدينين) والصهيونية، إذ أصبحت العودة إلى فلسطين ممكنة دون انتظار مقدم الماشيَّح .

٢- مهاجمة مفاهيم أخرى ، مثل العودة والشعب المقدَّس، بحيث أسقطوا البعد الديني المجازي، وكان هذا تمهيداً لتحويلها إلى مفاهيم ذات طابع دنيوي وضعي حرفي فتحوَّلت صهيون إلى موقع للاستيطان وتحوَّل الشعب المقدَّس إلى شعب بالمعنى العرْقي أو الإثني .

٣- تطبيع اليهود أي أن تكون الشخصية اليهودية شخصية طبيعية، ويصبح اليهود أمة مثل كل الأمم، وتطوَّر هذا المفهوم ليصبح الدعوة إلى تأسيس الدولة الصهيونية حتى يكون للشعب اليهودي دولته المستقلة شأنه في هذا شأن كل الشعوب .

ولقد خلقت حركة التنوير في شرق أوربا طبقة وسطى يهودية تتميز بصفتين متناقضتين هما :

أ- الولاء الكامل لتراثها الديني الغربي .

ب- التشبَّع بالأفكار السياسية والاجتماعية الغربية من قومية إلى اشتراكية .

---

(١)الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٧٠-٧٢

وهذا الازدواج الفكري، أو التعايش بين نقيضين، هو الذي أفرز القيادات والزعامات الصهيونية القادرة على التحرك في إطار معتقداتها التقليدية ، والتي تجيد في الوقت نفسه استخدام المصطلحات والوسائل العلمانية. (١)

ومن أهم أسس الازدواج الفكري لدى زعماء الحركة الصهيونية :

أ- الشعب اليهودي شعب مثل كل الشعوب، ولكنه شعب ذو رسالة خاصة وحقوق مطلقة .

ب- الشعب اليهودي يسعى لتأسيس دولة ديموقراطية مثل كل الدول الأخرى، ولكن هذه الدولة تتمتع بقداسة لا نظير لها حتى أنها تحل محل الرب في وجدان اليهود .

ج- المستوطن الصهيوني سيعمل بيديه في الأرض، ويتحرر من الاستغلال والملكية الخاصة ومن كل ما يميِّز الإنسان عن أخيه الإنسان. ولكن أرضه ليست أي أرض بل الأرض المقدَّسة الخاصة المقصورة عليه .

هـ- الدعوة إلى الإخاء الإنساني والعالمي ،ومع ذلك يقتل العرب ويرفض السماح لهم بأن يزرعوا الأرض معه .

٤- انتقاد مفكري حركة التنوير اليهودية الشخصية بسبب طفيليتها و هامشيتها ، وأكدوا على أهمية العمل اليدوي وطالبوا بتحويل اليهودي إلى شخصية منتجة وهذه قضية أثارها الصهاينة .

٥- بعث البطولات العبرية القديمة مثل : شمشون وشاؤول، وهي بطولات تجسِّد عناصر لا عقلانية خارقة وذلك لتنفض الشخصية اليهودية عن نفسها شيئا من خنوعها وتصبح شخصية تمتلئ بالحيوية .

٦- إزكاء نيران الحب لصهيون وفلسطين وتمجيدها الأسلاف كانت بمثابة المدخل الحقيقي لانتشار المثل الأعلى القومي بين اليهود .

بعد فشل حركة التنوير في دمج اليهود في مجتمعاتهم الأوربية ، كانت هناك ردود أفعال يهودية أربعة على النحو التالي :

١- ردود الفعل الفردية ، بأن يعتنق الشخص دينا آخر ، وإذا لم يكف ذلك فإنه يندمج تماما بل ويتخذ لنفسه اسما آخر لكي يمحو تماما أي أثر لأصله اليهودي .

---

(١) انظر موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٣ / ج١ الفصل الخامس الاستنارة اليهودية. مرجع سابق .

٢- المشاركة في الحركات اللبرالية أو الاشتراكية لتغيير المجتمع على أساس أن هذه التغيير سيحقق الخلاص من معاداة السامية .

٣- القومية الإقليمية أي يكون اليهود هيئة خاصة في الدول التي يعيشون فيها لها حق انتخاب جالية وممثلين لها .

٤- القومية الشاملة ، التي تجمع اليهود بهدف خلق قومية يهودية لها أرضها الخاصة (فلسطين) حفاظا على الشخصية اليهودية التي كانت في طريقها إلى الاختفاء والتصفية وهذا ما يسمى الصهيونية . ([1])

وفي النهاية رفض غالبية اليهود الاندماج في المجتمعات الأوربية فاليهودي الذي يسعى لتحويل نفسه إلى يهودي هولندي أو إنجليزي أو أمريكي يشوه – في أعين الصهيونية – شخصيته اليهودية ، وأحرى به أن تنفذ عملية الاندماج على أساس قومي لا فردي فبدلا من محاولة الاندماج يجب على اليهودي أن يتحول إلى شعب يماثل الشعب الإنجليزي ، بإنشاء وطن قومي له يغدو فيه سيداً ([2])

إذن كان هناك عاملان رئيسيان عملا على حمل كثير من اليهود على اعتناق الصهيونية وهما :

١- **الاندماج اليهودي** في المجتمعات الأوربية ، الذي يهدد الهوية اليهودية .

٢- **الاضطهاد** من قِبَل المجتمعات الأوربية الذي يهدد الوجود اليهودي .

وسنبين في الفصل التالي ما هي الصهيونية ؟ وما هي أهدافها ؟ وكيف استطاعت أن تحقق هذه الأهداف .

***

([1]) د. رشاد الشامي " الشخصية اليهودية " مرجع سابق ص ٧٢ .

([2]) فؤاد محمد شبل " مشكلة اليهود العالمية " ص ٨٨ ، نقلا عن " الشخصية اليهودية الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٧٤